محاسن الخيل في شعر ابن حمديس الصقلّي

أ : علي محمد بن صالح ـ كلية التربية زلطن ـ جامعة الزاوية

توطئة :

في الأدب الأندلسي مكانة مخصوصة للفارس والفرس، فالشعر على تباين مراحله منح الخيل مجالاً فسيحاً بين موضوعاته وفنونه؛ لأنَّ أهل الأندلس ورثوا الفروسية عن أجدادهم المشارقة، الذين كانوا يتنافسون على تربية وشراء الخيول الأصيلة، "فأحبوها وعنوا بها وبتربيتها وصيانتها واستنتاج كرائمها وترويضها للحروب والسباق. وقد دارت أوصافهم لها في شعرهم الجاهلي، فلم يكادوا يتركون عضوًا من أعضائها إلا وصفوه، ولا خصلة ولا عيبًا إلا ذكروه، وفي معلقة امرئ القيس صورة من وصفهم لخيلهم".[1]

من هنا كانت للخيل مكانة خاصة في شعر ابن حمديس الصقلي، فهو فارس متمرس في ركوب الفرس، وشاعر عربي الأرومة، وحُبَّهُ للفروسية ورثه عن أجداده الأزد وهم من قبائل العرب، ووصف الخيل قديم في الشعر العربي، وذو مسحة أندلسية عند الأندلسيين طبعوه بطباعهم، وربطوا بينه وبين ذواتهم، وطبيعتهم، فاشتهر من بينهم ابن حمديس الذي يعد من وصَّافي الخيول، وكان في كل وصف يأتي بالطريف المستطرف"[2] وقد تناولتْ هذه الدراسة المتواضعة (محاسن الخيل، وأوصافها في ديوان ابن حمديس [3] الصقلي) بتحقيق الدكتور إحسان عبَّاس المنشور عام1960م بدار صادر بيروت/لبنان.

أولاً- ابن حمديس بين الفارس والفرس:

كان ابن حمديس الصقلي من أهم الشعراء الذين وفدوا على الأندلس، فقد كانت ولادته بصقلية[4] عام 447هـ/1055م، ونشأته بين مرابعها الجميلة وكانت أصوله أزدية عربية، وأسرته من بين الأسر المحافظة على انتمائها وعروبتها بحسب ما تضمَّنته الأخبار التاريخية والأدبية[5].

إلاَّ أنّ رحلته إلى الأندلس واستقراره في حاضرة العبَّاديين بمدينة أشبيلية لم تكن لأجل التجوال والمتعة، بل كان الأمر مفروضاً عليه بسبب الفتن والخصومات الشائعة في صقلية، وكثرة الدسائس والمحن الطارئة عن تشرذم الأهالي، وتبُّدل الأحوال آنذاك.

لكن هذا الشاعر قدم إلى أشبيلية بعد أن بلغة خبر أميرها وشاعرها المعتمد بن عبّاد[6] الذي اشتهر بحنكته وحُبَّه للعِلم والأدب، وقرضه للشعر فضلاً عن شغف زوجته بعمل الشعر ونقده.[7]

أمَّا مَجالسه فعامرة بالأدباءِ والشُّعراءِ والكُتَّاب، فهم المبرَّزون في حضرته، ولهم مكانة خاصَّة بين حاشيته، لهذا وجد ابن حمديس غايته وغرضه، فقرَّر الإقامة عند هذا الأمير الشَّاعر، والدنوّ منه، والاكثار من مدحه، والثناء عليه وبخاصَّةٍ بعد أنْ لقي الترحيبَ والقبولَ والتشجيعَ من الأمير، وخاصَّته في القصر[8]؛ ولذا تفرّغ ابن حمديس لمدح المعتمد بن عبَّاد في اشبيلية وكان مديحه وشعره يصدران عن انتماءٍ يعرُبي وكبرياءٍ أصيلة، وكرم طِباع لا نظير له، ولما كانت الفروسية إحدى السمات المنبثقة عن العروبة والإسلام، كان حب وتعصب شاعرنا لأُمَّته ودِينه ساكناً في نفسه، أبت قريحته إلاّ أن تجود بهذا الحب في قصائده، فكان ذلك أحد أجود منابع ثرائه الشعري، فاشتد نبوغه فيه بسبب العلاقة الوديِّة التي ربطته بالشعر والخيل في وقت واحد؛ مما جعل شعره مجالاً للإشادة بالفَرس والفارس، فوصفهما بأحسن الأوصاف والقيم؛ ولذا كان له سبق الـ"تفوَّق في وصف الفرس وكانت له طريقته في تفصيل أوصافها ومحاسنها"[9] ولا أظن فيما أحسبه أنْ يبلغ شاعر مبلغ ابن حمديس في التعامل مع هذا الفن المتعلق بالثناءِ على الفوارس وإطرائهم، فمن قوله في هذا المضمار: **(10)**

بأرض نبات العز فيها فوارس تصول المنايا في الحروب إذا صالوا

تظللهم، والرُّوع يشوي أواره ذوابل فيها للأسنة ذبّالُ

إذا أطفأ الدجن الكواكب اسرجوا وجوهاً بها تهدي المسالم ضلاّل[11]

فمن كل قرم في الندى هريرة إذا ما احتبى قيل من المجد أو قال[12]

شجاع يصيد القرن حتى كأنَّه إذا ما كساه الرمح أحقب ذيّال.

فالفرسان في القطعة السَّابقة يتَّصفون بصفات عريقة ترتبط بمنبتهم الشريف وموطنهم العزيز فهم أبطال الوغى ورجال الشدائد في الميدان حين تلتهب المعارك، وترتفع الأسنَّة، وكرام القوم والسادة بينهم في مواقف المجد والإباء يعتزون بشجاعتهم ونبلهم وكرم طباعهم العربية الأصيلة.

وقد كان إعجابه بأحد كبار قادة الجيش الأشبيلي لارتباطه بحبِّه الفروسية، وتفوقه في ركوب الخيل ولما توفيّ رثاه قائلاً: **(13)**

كم جواد بكاك غير صبور فيناح عليك منه الصهيلُ

وحسام أطال في الجفن نوماً لم ينبهه بالقراع الصليلُ.

في هذين البيتين وصف دقيق لمحامد القائد الفرد وأوصافه النادرة، فابن حمديس بكى فروسيته وشجاعته وتضحياته في الميدان، إلاّ أنَّ هذا الشاعر مهوم بصقلية مسقط رأسه وموطنه الساكن في أعماقه؛ لذلك يتشوق إليها ويذكرها كلما سنحت الفرصة، وها هو يقول: (14)

ونحن بنو الثغر الذين ثغورهم إذا عبست حرب لهم تتبسمُ

لنا عجز الجيش اللهام وصدره بحيث صدور السمر فينا تحطم

يضاعف إنْ عدَّ الفوارس عدنا كأنَّ الشجاع الفرد فينا عرمرم.

فالذكرى مازالت في صدره، وصقلية النائية لا يمكن نسيانها، فهي ملهمته وينبوع شاعريته، وهو حين ذكرها قرن حديثه عنها بذكر محامد قومه وطباعهم وفروسيتهم النادرة. أمَّا شهامة الفرسان وإقدامهم فيستعرضها في أحد مواقفه المهيبة حين لمعت له نارٌ في الفضاءِ وهو بين أقرانه من الفوارس فقال: (15)

من كل حب بالحروب حياته مشغوفة بمنية الأقران

في متن كل أقب تحسب أنَّهَ برق يصرفه بوحي عنان(16)

فإذا تضرمت الكريهة واتقى لفحاتها الفرسان بالفرسان

وثنى الجريح عنانه، فكأنَّما خلعت عليه معاطف النشوان

قدوا الدروع بقضبه فكأنَّهم صبُّوا بها خلجاً على غدران

من هنا أشاد بالفرسان البواسل، وذكر بأنَّ كل بطل منهم أتى على جواد أصيل لا يبارى في جريه وسرعته، وكان حُبَّهُ للموتِ يدفعه إلى الإسراع نحو الميدان بنشوة المبتهج، فإذا لقي الخصم أرداه قتيلاً بسيفه، وتلك هي أوصاف الأبطال النبلاء وكأنَّهم في نظر الشاعر روافد متدافعة فتحت على غدران مياه فحرَّكتها، وغطَّتها بتيارها الشديد.

وعلى أيَّة حالٍ فمدح الفرسان والتنويه بالفروسية وركوب الخيل من موضوعات الشِّعر المهمَّة عند ابن حمديس ومعاصريه من شعراء الطوائف في بلاد الأندلس، وإن أكثر هذا الشاعر من ذِكر الفروسية والفرسان؛ فذلك لأنَّه كان ماهراً في ركوب الخيل ومقلّداً لأجداده في هذا المضمار، أمَّا وصف ابن حمديس للفرس، وتنويهه بالخيول الأصيلة، فقد جاءَ في ديوانه على جانبين وهما:

الأولُ- وصف الفرس في قصائد وقطع أبيات مستقلّة.

الثاني- وصفه في سياق المديح والفخر.

فأمَّا النوع الأول، وهو اشتمال الديوان على قصائد ومقطوعات خاصة بالفرس كما هو مبيّن في الجدول التالي:

ر.م	القصيدة الشعرية	عدد الأبيات	الغرض الشعري	الصفحة
	وذي (أربع) كخوافي العقاب	10	وصف الجواد	71
	وأشقر من خيل الدنان ركبته	4	وصف الجواد	106
	ومنغمس في صبغة الليل يتمطَّى	8	وصف فرس أدهم	137
	ومنقطع بالسبق في كل حلبة.	3	وصف فرس	144
	ومجرر في الأرض ذيل عسيبه	3	وصف الجواد	329
	وطائرة بذ الخيول بسبقها.	4	وصف فرس	329
	جاءتك أولاد الوجيه ولاحق.	27	وصف خيل مهداة	330
	ومديد الخطى كأنَّك منه.	3	وصف فرس	401
	أدهم كالظلام تشرق فيه.	2	وصف فرس أدهم	497
	لا ذنب للطرف في معداه يوم كبا	12	في كبوة الجواد	514

وقد تنوَّعت أوصاف الفرس الحسن في شعر ابن حمديس وتعدَّدت محاسنه الجسيمة، وقدراته في العدو والحركة بين الخيول الأخرى، لكن وصفه للخيل ارتبط عنده بمحامد إنسانية وملامح طبيعية مختلفة، فهو حين يصف فرساً يحاول وصف راكبها فينعته بأوصاف الفرسان، وبالدرجة التي يراها ملائمة له.

إلاَّ أنَّ منح الفرسان والخيول حيِّزاً بين المدائح هو أمرٌ مقرونٌ باعتقاده الذاتي، وغرضه في ربط ممدوحه بمحاسن القوم، ومحامدهم العريقة وعلى رأسها الفروسية وركوب الخيل.

وإلى جانب ذلك وصف ابن حمديس الخيل بألوانها، واحتذى في هذا العمل حذو أجداده العرب الذين كانوا يدققون في نعت خيولهم فعلى سبيل المثال كان العرب ينعتون "الفرس خالص الحمرة وعرفه وذيله أسودان قيل فيه أورد والجمع وراد والأنثى وردة، فإن خالط حمرته سواد فهو كميت الذكر والأنثى فيه سواء فإن صفت حمرته شيئا قليلا قيل كميت مدمي، فإن كان صافيا قليل الحمرة وعرفه وذيله أشقران قيل أشقر فإن كان أحمر وذيله وعرفه كذلك قيل أمغر، فإن خالط شقرة الأشقر أو الكميت شعرة بيضاء قيل صنابي أخذا من الصناب وهو الخردل بالزبيب، فإن كانت حمرته كصدأ الحديد قيل أصدأ، فإن زاد فيه السواد شيئا يسيرا قيل أجأي والاسم الجؤوة الرابع الصفرة، فإن كانت صفرته خالصة تشبه لون الذهب وعرفه وذيله أصهبان مائلان إلى البياض قيل أصفر خالص فإن كانا أبيضين قيل أصفر فاضح، فإن كانا أسودين قيل أصفر مطرف وهو الذي يسمونه في زماننا الحبشي، فإن كان أصفر ممتزجا ببياض قيل أشهب سوسني، فإن كان في أكارعه خطوط سود قيل موشي" [17] وهكذا.

ومن هنا أتت نعوته متصلة باللون الخاص بالفرس، وكان تقسيم الخيول بحُسن ألوانها كما يلي:

1- الأدهم- وهو الأسود من الخيل ومنها: فرس عنترة العبسي[18] الأدهم الذي يقول فيه:[19]

يدعون عنترة والرماح كأنها ... أشطان بئر في لبان الأدهم

وفيه يقول شاعرنا: [20]

تمطَّى ومنغمس في صبغة ... إلى آجل الآساد قيد الأوابدِ الليل

يختم يمناه قبيعة صارم ... لما قد طغى من سنبل الهام حاصدِ[21]

يكر فكم جسم على الأرض ساقط ... صريع وكم روح إلى الجو صاعدِ.

فالأدهم يتخيَّله ابن حمديس منغمس في ظلام الليل ويركب إلى الأبطال لأجل قبضها، ويكر فلا يدع شيئاً أمامه حتى أنَّ كل خصومِه يسقطون صرعى على الأرض وتصعد أرواحهم إلى السماء.

ويقول عنه ابن خفاجة[22]. **(23)**

وأدهم لولا أنُّه راق صورة ... لما عرفته العين في ليلة الهجر.

وفي موضع آخر يصف هذا اللون من ألوان الخيل فيقول: **(24)**

أدهـم كـالظلام تشـرق فيـه شـــعرات منيـــرة للعيـــون

كالذي يخضب المشيب ويبقى شـاهدات بهـن نفـي الظنـون.

وفي هذين البيتين يصف الشَّاعرُ الفرس فيشبِّهُ لون الأدهم بالظلام الذي تشرق فيه شعرات بيض تنيره للأبصار، وهو يضع مشابهة تمثيلية مركَّبة من فرسه الأدهم وفيه شعرات بيض، ومشيب الرأس المخضَّب وفيه بقية من شيبِ ملحوظ.

2- الأشقر: وهو الفرس الذي تشوب بياضه حمرة وفيه يقول ابن حمديس: [25]

وأشقر من خيل الدنان ركبتـه فأصبح بي في غاية السكر يجمحُ[26]

فألجمته بالمزج حتى وجدته بما شح من حسن الرياضة يسمحُ

وهنا يكشف عن لون آخر من ألوان الخيل وهو الأشقر [27] ويذكر أنَّه ركبه، ولكنَّه جموح فألجمه بالمزج حتى وجده ينقاد إليه بعد لحظة عنفوان.

وعندما مدح ناصر الدولة مبشر بن سليمان صاحب ميورقة [28] وصف خيولاً أتته هدية من أحد الوجهاء، فذكر من بينها الأشقر وقال عنه [29]:

ومزعفر لون القميص بشقرةٍ كالريح تعصف في التهاب البارقِ

فالجواد الأشقرُ محبوب عند العامَّة، ويستلطفه الخواص لما يبدو فيه من تناسق اللون والبدن.

وفي قصائد المديح بالديوان تبدو أوصاف الأشقر عند ابن حمديس لتعلقه بهذا اللون، فيقول في مثل هذا المعنى: **(30)**

مـن كـل ورد رائـق كسـميه فتخـال مـن شـفق لـه سـربالاً

أو أشقر كالصبح يعقل رادعاً هيـق الفـلاة وجابهـا الـذيالا.

فابن حمديس رصد الورد المشابه للون الشفق ثم ذكر الأشقر فشبَّههُ بالصُبح، وهو ينحو منحى الانسياح في الأرض.

3- الأشهب:وهو الفرس المناظر للفرس الأدهم، ويكثر ذكره وتشبيهه بالصبح عند العرب [31] وفي وصفه يقول ابن حمديس: **(32)**

أو أِشـــهب مثـــل الشـــهاب ورجحـــه شخص المريد بمحرق مشبوب

لا فـرق مـا بـين الصـباح وبينـه إلاّ بعـدْوٍ منـه أو تقريـب

وفي موضع آخر من شعره يصفه فيقول: (33)

أو مشـبه لـون الشِّـفاه فكلّمـا رشـقتهُ بنظـر العيـون أحـالا

إلاّ أنَّ تشبيه الأشهب بلعس الشِّفاه أتى عند ابن حمديس على سبيل الطرافة والتمييز، فالخيل في نظره تتفاضل في ألوانها مثلما تتفاضل بأبدانها وأُصولها العريقة،ولذا فهي مقرونة بالمنظر والسرعة، ولهذا كان الشاعر مهتمَّاً في أغلب مدائحه بذكرها؛ لأنَّ العرب -حَكَّاماً ووجهاء وعامة- يحرصون على انتقاءِ الخيول الأصيلة السريعة التي تتفوَّقُ في العدو، و يسرّ جمال منظرها ورشاقة أبدانها.

4- **الأصفر:** وهو الفرس الذي "يميل لونه إلى الصُّفرة وفي وصفه تباينت الأشعار، والآراء بين المهتمين بالخيل في القديم والحديث" (34).

أمَّا ابن حمديس فقد كرر ذكره في قصائد ديوانه، ومن ذلك قوله: (35)

أو أصفر مثل البهار مغيّر بسواد عرف من سواد عسيب(36)

وفي هذا البيت شبَّه ابن حمديس الصقلي الفرس الأصفر بالبهار – وهو بهار الكركم الشديد الصفرة - من جهة اللون، فالإعجاب بهذا الجواد مصدره الإعجاب بلونه وتوافق اللون مع سواد العرف جعل الصورة البيانية مثيرة في هذا الوصف، كما أنَّهُ يرى جمال اللون في جمال الحركة والعدو، فالأصفر حين يركض مسرعاً يثير من حوله الأنظار لما يبدو في شكله من طرافة وجودة أداء في الجري، ولهذا قال في وصفه: (37)

أو كـل أصـفر راكـض فـي عـدوه لـجّ المنيـة معطـب بـالوارد

فـاللون الأصـفر مـن ألـوان الخيـل الشـائعة عنـد الأندلسـيين، ووصـف ابـن حمـديس لهـذا الفـرس كـان مقرونـاً فـي البيـت السـابق بركضـه فـي العـدو؛ لأنَّ السرعة من مقومات الجواد العربي الأصيل منذ العصور القديمة.

5- **الأشعل:** وهو كل فرس في ذنبه أو في مقدم رأسه أو مؤخّره بياض بحسب آراء الأقدمين وأهل اللغة (38) وفي وصفه قال ابن حمديس: (39).

أو أشـعلٍ كالسـيِّد سـابحاً فحسـبته بـالأيطلين غـزالاً(40)

وفي هذا البيت توصيف مخصوص للفرس الأشعل بلغ حدَّ التخيُّل حتى كأنَّه أصبح غزالاً عند عدوه في نظر الشاعر وتقديره، وقد تباينت ملامح التصوير

عند ابن حمديس، فصورة الجواد الأشعل تلوَّنت بلون الحركة والبدن والصفة النوعية المرتبطة بأصل الفرس وتكوينه العام، فهو يصفه في موقف آخر فيقول عنه: (41)

أو أشعل للون فيه شعلة تذكي بريح منه ذات هبوب.

فلون الفرس يبدو مختلفاً؛ لأنَّ البياض يذكي فيه بريق مثير للاهتمام فكأنَّهُ يزيد فيه من الغرابة حتى يظهر مثل الريح المنذرة بالهبوب.

إلاَّ أنَّ الشاعر في البيت الذي يلي البيت السابق يصف سرعة الأشعل فيقول: (42)

وكأنَّهُ مرداة صخر حطَّهُ من علو سيلٍ ماجٍ في تصويب(43)

وهنا شبَّه ابن حمديس سرعة الجواد الأشعل بسرعة الصخر الملقى من علو سحيق بسبب السيَّل الذي جرفه من الجبل إلى القاع فسقط بسرعة مفاجئة باتِّجاه محدد مدفوع بالماءِ الجارف.

6- **الورد- "** لون أحمر يَضْرِبُ إلى صُفرة حَسَنه في كل شيء. "(44)وأطلق على كل فرس أحمر يميل احمراره إلى صُّفر، وفيه يقول ابن حمديس ناعتاً ومدحاً خيول أمير ميورقة (45):

وصواهل مثل العواسل عدوها أبداً لحرب عدوك المحروب(46)

من كل ورد ما يشاكل لونه إلاَّ تورد وجنة المحبوب.

ففي البيتين السابقين شبه الشاعر انطلاقة وصولة خيل الأمير وعدوها في ميدان الوغي بالنحل في خفّته وسرعته، وهو يجمع رحيقه من الزهور وطوافه بين الحقول والبساتين، وعلى رأسها الفرس الورد المحاكي للون وجنة الحبيب الموردة من حياءٍ وخجل.

ويقول في مدح أحد الأمراء المغاربة(47) ونعت خيله ووصفه لها على سبيل الإكبار والتعظيم: (48)

وكأنَّ أجياداً حباك جياده فسكوتهن من الجلال جلالا(49)

من كل وردٍ رائق كسميّه فتخال من شفق له سربالاً

وفي البيتين السَّابقين وصف ابن حمديس خيل ممدوحه بأحسن الأوصاف، ورصد الفرس الورد، فهو كسميّه ربما يقصد راكبه ومالكه، ثم إنَّهُ يبدو للناظر وكأنَّهُ يلبس ثوباً تشبه حمرته حمرة الشفق.

غير أنَّ ابن حمديس الصقلي ذكر حشداً من ألوان الخيول العربية الأصيلة التي رصدها الوصف، وشاعت بين الأقدمين في أشعارهم وأخبارهم، فكان من أشهر شعراء العربية المتأخِّرين في ميدان الخيل وصفاتها.

ثانياً- الفروسية في نظر ابن حمديس:

لقد امتلك ابن حمديس مقود الفرس، فشغل نفسه بأوصاف الخيل، وأساليب الفروسية، ومحامد الفرسان، وخصَّص من شعره مجالاً فسيحاً لاستعراض تلك الجوانب ولكشف السِّمات الفارقة، وأوجه التمييز بين الفرسان والخيول، وطرائق العدو والحرب وملامح التفوق في الميدان؛ لذا "يحتل الفرسُ في حياة العربي مكانة خاصة منذ أقدم العصور، فهو له صديق، وأليف زمن حربه وسلمه"[50] وله –أيضاً- مرتبة سامية في النفس، لأنَّه وسيلةُ التواصل والترفيه فضلاً عن أهميته الكبرى أثناء اشتعال الحرب؛ ولهذا السبب عني قدامى العلماء بالفرس والفروسية وكتبوا عنها مؤلفات مبسوطة، فوضع ابن الكلبي كتاب أنساب الخيل، وألف أبو عبيدة كتاب الخيل، ولابن جُزيّ دراسات خاصَّة بهذا الحيوان المهم في كل زمان ومكان[51].

من هنا كان رصد ابن حمديس الصقلي لملامح الفروسية وبطولات الفرسان الأندلسيين في ميادين القتال مع الأسبان والفرنجة، ومن ذلك قوله: [52]

يحثُّون للهيجاءِ جرداً سلاهباً وينضون في البيداءِ بذلاً صلادما[53]

إذا طعنوا بالسمهرية خلتهم ضراغم تغري بالقلوب أراقما

لكن وصفه لبطولات الفرسان، ومواقفهم النادرة كان في إطار المديح والثناء، فهو لم يقصر وصف الفروسية على ممدوح بعينه، بل تعدَّدت فرسانه وأبطاله، وكان تعظيمه لأولئك الفرسان جانباً من جوانب الإطراء والمدح والتنويه.

وقد تناول ابن حمديس موضوع الفروسية في صور متنوِّعة من الوصف والتمجيد، فاستعرض مشاهد الكرِّ والفرِّ في الميدان، وملامح الحركة المدهشة عند لقاءِ العدو، وتوقف في مواضع بطولية مشيداً بحنكة المغامرين الفرسان أثناء التحام الجُند في المعركة، فقال في أحد المواقف: [54]

وبيد ترى ذات السنابك في السرى مسلمة فيها لذات المناسم[55]

بها من قبيل الإنس جنان مهمه صعاليك إلاَّ من قفا وصوارم

كأنَّ الرياح الهوج راضوا شدادها أما ركبوا وهي لين الشكائم.

فالفرسان الأبطال يتَّصفون بالشجاعة والإقدام وكرم الطباع ولا يرهبون شيئاً حين يشتد الوغى فكأنَّهم جن مرسل أثناء المقارعة الميدانية ولقاء الأقران.

إلاَّ أنَّ وصفه للفرسان يرتكز على مدى إقدامهم في الميدان، وتضحيتهم عند اللقاء، ومن ذلك قوله [56]

وخيـــل عليهـــا كـــل رام بنفســـه رضاك إذا ما كنت بالموت راضيا

وقد لبسوا الغدران وهي تموَّجت دروعاً وسلّوا المرهفات سواقيا

فالجرأة ومقارعة الخصوم من سمات الفرسان الذين يؤثرون التضحية لأجل النصر، ورفع الهامة، وعلو المقام بين الناس.

أمَّا وصفه للخيل فإنَّه يهتم بالبدن واللون، فالفرس الأقب أي الضَّامرُ البطن والدقيق الخصر كان محل اهتمامه وحديثه، فهو من الخيول المفضَّلةِ عنده وفيه يقول: [57]

وأقـبّ كاليعسـوب تركـب متنـه فركوب متن البحر دون ركوبه

مـتقمص لونـاً كـأنَّ سـواده غمس الغراب الجون في غربيبه[58]

يرميـك أول وهلـة بنشـاطه كالماء فض الختم عن أنبوبه

بقـديم سـبق يسـتقل ببعضـه وكريم عرق في المدى يجري به

وبـأربع جاءتـك فـي تركيبهـا بـالطبع مفرغـة علـى تركيبـه

فكـأنَّ حـدة طرفـه وفـؤاده مـن أذنـه نقلـت إلـى عرقوبـه

ألقى على الأرض العريضة أرضه ثـم اشـتكى ضـيقاً لهـا بوثوبـه

وجرى ففات البرق سبقاً وانتهى مـن قبـل خطفتـه إلـى مطلوبـه

فابن حمديس يشيد بالجواد الضَّامر البطن، فهو سريع العدو والحركة، وفيه من ملاحة البدن وقوة الجري لطائف عجيبة؛ لذلك يتفوَّقُ في عدوه على جميع الخيول، ويشبه في سرعته البرق، بل يتجاوزه في السرعة والحركة، حين يكون في حلبة السِّباق والمنافسة.

على أنَّ طبيعة الفروسية العربية تحكمها تقاليد البيئة، وأعرافها السَّائدة، فالفارس من أشجع الرجال وأجودهم أخلاقاً وأدباً وكرماً، فضلاً عن تفوقه في

ركوب الخيل "فالفارس من أعيان القوم ومقامه معلوم بين النَّاس، وهو صاحب الرأي والعقد فلا يبرم أمر عظيم إلاَّ بحضوره، ومشورته" [59].

من هنا تنوَّعت أوصاف الفرسان ومظاهر الفروسية في شعر ابن حمديس، "فلم يقصر شعره على جانب محدد أو فارس بعينه؛ بل كان وصفه متبايناً متعدداً بحيث أحاط بالفرسان في المعارك والحلبات المعدَّة للسباق، وكان متعصِّباً في تمجيد الفوارس من أهله، وقومه، فالخيل مرتبطة بالعرب منذ القديم"[60] وفي حديث رسول الله-صلى الله عليه وسلم- قوله: { الْخَيْلُ مَعْقُوْدٌ بِنَوَاصِيْهَا الْخَيْرُ إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} [61]

وفي وصف ابن حمديس لجرأة الفرسان وفروسيتهم التي تبلورت في نفوسهم إذ كان " يدور أمر الفروسية لهم الفر والكر. والفارس هو الذي يطوي الجيش طي السجل، ويفرقهم فرق الشَّعر"[62].يقول ابن حمديس: [63].

فكأنَّهم في السَّابغات صوارم والسَّابغات لهم من الأغماد

أُسد عليهم من جلود أراقم قمص أزرتها عيون جراد.

فالفوارس في ساحة الوغى لا يهابون الموت ولا يخافون الهلاك فيسعى بهم القدر إلى النصر أو الشهادة فهم أسدُ ضوار وجلودهم وأبدانهم قوية مثل جلود الأفاعي القاتلة، وشجاعتهم تفوق الخيال.

أمَّا التمتع بركوب الخيل عند المنافسة في ميادين الرياضة والسِّباق، فقد كان موضعاً أخرَ من اهتمامات ابن حمديس حيث يرى "في نفوس أصحابها ضربًا من التسامي والإحساس بالمروءة الكاملة؛ فإذا هم يتغنون دائمًا بمجموعة من الفضائل والخصال الحميدة، وإذا قرأتَ عنهم فستراهم يتحدثون عن كرمهم الفياض، ووفائهم وحلمهم وأنفتهم وعزتهم وصبرهم على الشدائد، وتحمل المشاق وحفظهم للعهد وحماية الجار.[64] كل ذلك خصال توارثها العرب من العصر الجاهلي فهي ماثلة فيهم منذ ذلك الوقت ولذا يقول: [65]

باكر إلى اللذّات واركب لها سوابق اللهو ذات المراح

من قبل أنْ ترشف شمس الضحى ريق الغوادي من ثغور الأقاح

وفي هذه اللمحة الطريقة كشف الشَّاعُر عن أهمية الخيل في وقت السِّلم، فهي وسيلة تواصل بين الناس، وأداة متعة وسرور في كل وقت، كما أنَّ ركوبها في أوقات السلم لا يقلّ أهمية عن ركوبها في زمن الحرب، لذلك كانت من أكثر الحيوانات المحبوبة لدى الخواص والعوام، فهي الوسيلة المثلى للركوب، والتنقُّل، والسفر إلى المناطق النائية، وفي الحقيقة لم يكن

ابـن حمـديس الصـقلي الشـاعر الأندلسـي الوحيـد الـذي خصَّـص، مجـالاً رحبـاً للفـرس والفروسـية فـي ديوانـه، بـل كثـرت الأشـعار والطُّـرف فـي وصـف الخيـول والفرسـان؛ لمـا تتمتَّـع بـه الخيـل مـن مكانـة مخصوصـة عنـد الأندلسـيين في ذلك العهد.

وخُلاصة القول: إنَّ الخيل تتباين عند العرب جميعاً، وذلك التبـاين مصدره تنافس مستمر على شرائها، وحيازتها واستعمالها في وقت الحرب والسِّلم، وهي متعددة الأصـول والأنـواع والألـوان، إلاَّ أنَّ أهل الأنـدلس حرصـوا علـى تـدريبها وإعدادها بأساليب مستحدثة في ظل التطور والتمدن، فقد أصبحت للخيول مرتبـة جديـدة؛ لأنَّهـا ذات أهميـة قصـوى فـي الحيـاة اليوميـة فهـي مصـدر متعـة ورياضـة وترفيه.

ثالثاً- اتّخاذ الفروسية وركوب الخيل وسيلة مدح وإعجاب:

استخدم أهل الأندلس الخيل في حروبهم وحلّهم وترحالهم، وكـانوا يتقنـون في وصفها ووصف أصحابها؛ لذلك جعلوا ركوبها وإجادة الفروسية وسيلة مديح وإطراء؛ لأنّ "الركوب يعلّم الفارس والفرس معا، فهو يؤثر القوة في المركوب وراكبه"[66] ولذا نجد شاعرنا ابن حمديس يقف عند صاحب ميورقة مبشر بن سليمان مادحاً معجباً بفرسه وفروسيته فيقول: [67].

وتراهُ يد بر كـالظليم بردفـه عجباً ويقبل كانتصـاب الباشـق[68]

وكأنَّـه وكـأن طلعـة مبشـر شـفق تـألّق فيـه مطلـع شـارق

وأحسب أن ابن حمديس وصَّافٌ مبدع وشاعر مفلق مُجيد يعرف سبيل الوصف والمديح ويبلغ غايته في القول الجميل مبدعاً بلا اشتباه؛ ولهذا يندر شبيهه في عمله، فمن اليسير أنْ يقع فيه وفي قولـه عيب أو زلل؛ لأنَّـه رفيع القدر، ونقي اللسان فمن الصعب مجاراته في صنعته وعمله، كما أنَّه موهوب في هذا اللون من الشعر، فالخيل استحوذت علـى شـاعريته وشـعره، وجعلتـه يخصـص فـي ديوانـه مجالاً رحباً للخيل، وأوصافها وألوانها، ويكشف عن إعجابه بالفرسان والفروسية، ومن ذلك قوله في إحدى قصائده:[69]

نمتـه إلـى عزٍّ العروبـة غرّة فأرتـه فـي الخلـق افتنـان الخـالقِ

وكـأنَّ هذا الفحل قدّ بسوطه شـفق تـبلج فـوق البـارقِ

ففي النص السابق التقى الوصف والمدح معاً في دائرة فنية ألقى فيها الجمال رحلة وتلك عبقرية المبدع التي تنقل المتلقي إلى أفق المشهد بكل تفاصيله بلا قصور.

أمَّا الفرسان فإنهم خيار النَّاس ويتَّصفون بمحاسن الأخلاق ومكارم الصفات والفضائل فضلاً عن الشجاعة والإقدام والشهامة والإيثار.

من هنا كانت الفروسية من فضائل الحياة وقيم الرجولة، ليس عند الأندلسيين فقط، بل عند كل الأمم منذ بداية الخليقة حتى يومنا هذا، فالفرسان الأندلسيون متفوقون عن غيرهم لانفرادهم بهذه الخصلة الكريمة التي وروثها عن الأجداد المشارقة؛ لأنَّ: "المشارقة اهتمّوا بالخيل اهتماماً فائقاً، فهي زينة الفارس يمتطيها في نزهته وصيده، وتكون حصنه في الغزوات والغارات، وسلاحه في الكرِّ والفرِّ، وكان لكل فرس اسم خاص به، ونسب معروف، فوصفوه وصفاً دقيقاً لا يقلّ عن وصف الناقة"[70]. وفي الختام سيظل الفارس والفرس لهما المكانة الرفيعة في كل بلدان العالم، ولتزال قيمة الخيول الأصيلة محافظة على مستواها وقيمتها الباهظة حتى عصرنا هذا، فكثير من حكام وأمراء وأثرياء العالم يملكون أجود السلالات ويحافظون على نسلها وتأصيلها ويعتزون ويتفاخرون بها في ما بينهم؛ لذلك جهزت لها الإسطبلات والعيادات البيطرية وحلبات السباق، على أسس علمية وتقنية تناسب العصر سواءً على مستوى الدول أو المنظمات أو الجمعيات أو الأفراد .

نتائج الدراسة:

1- بينت الدراسة أن الخيل حظيت بمكانة مرموقة في نفوس الأندلسيين مثلما كانت في الماضي البعيد، وهو ليس بغريب، فأهل الأندلس أتوا من المشرق العربي على ظهور الجياد والإبل، إذ لم تكن هناك وسائل تنقل عندهم غيرهما في ذلك الوقت، وأقاموا بالأندلس بعد الفتح، فلم يغفلوا عن الفرس فهو الأسرع عندهم، ولذا يعتمد عليه في زمن الحرب و السلم والراحة. ولذلك كان اهتمامهم وعنايتهم بالخيل مثار جدل، فقد أوضح لنا معظم المؤرخين دور المربِّين للخيل في اختيار الخيول ذات الأوصاف، والمزايا الرفيعة فضلاً عن الحفاظ على تغذية الفرس، ومعرفة كل الجوانب المتصلة بحفظه وصونه من الأمراض، وتدريبه وتنشيطه، وركوبه في المناسبات العامَّة والخاصَّة، وتلك المسائل تجعل الفروسية رياضةً، ونشاطاً صحِّياً، وعملاً مهم في السلم، والحرب ؛ فأهل الإسلام جميعاً جعلوا للفرس، والفارس مرتبة مخصوصة في حياتهم للأهمية الفاعلة للفارس وفرسه في المجتمع طول الوقت.

2- الفرس والفروسية موضوع شعري مخصوص الأهمية والقيمة في أدبنا العربي القديم وفي تراث الأندلس الأدبي بخاصَّة ولهذا السبب شاع وجوده في دواوين الشعر الأندلسي بصورة مثيرة للاهتمام.

3- أظهرت الدراسة أن ابن حمديس الصقلي يعد أبرع الشعراء الأندلسيين الذين اهتموا بالفرس والفروسية في أشعارهم، وهو مبدع في وصف الفرس

والفارس بدرجة رفيعة تكشف عن حُبِّهِ للخيل وتعلُّقه بها حتى أنَّه وقف عند أوصاف الفرس والفارس، وأجادَ في هذا المجال باقتدار.

4- أوضحت الدراسة رصداً وأبعاداً للفروسية وعملها في الحرب والسلم، وذكر محاسن الفرسان وأدوارهم السَّامية في الميدان خلال النِّزال وخوض معارك الوغى، فهي تتفاوت في أشكالها وأوصافها، وحركتها وسرعتها، فضلاً عن قوتها وقدراتها الفنية عند خوض المعامع الحربية أثناء لقاء العدو.

5- تبين من خلال هذه الدراسة أنه عند النَّظر في وصف الفرس والفارس لدى ابن حمديس، تتضح براعة هذا الشاعر الرفيع في ضبط قدرات الفارس المقتدر الذي يقع بين رفاقه محط الإعجاب والثناء، فهو موصوف بخفةٍ في حركته ونشاطه، وركوبه، ومجيد في توجيه فرسه ودفعه نحو الميدان، وفي الوقت ذاته عنده معرفة وافية بلوازم المناورة، والتعامل مع الفرس في كل المواقف، فضلاً عن شجاعته وإقدامه بلا رهبة أو فزع عند حمي الوطيس، وتلك الفضيلةُ تقترن بهمَّةٍ عالية، تتجاوز مستوى المقاتل أو المدافع إلى درجة الإقدام الخيالي الأسطوري النادر عند كثير ممن يمارسون الفروسية في الحرب والسلم.

6- إنّ شعر ابن حمديس اتصف بالألفاظ الراقية الواضحة الدالة على المعاني القريبة والأسلوب المحكم فهو ذو عبارات محكمة المبنى مهذبة المعنى.

الهوامش :

1) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي دار المعرف مصر، ط 10، 1960م، 366.
بتحقيق إحسان عباس جـ10/229-231، وبدائع البداية ص 38، وكشف الظنون لحاجي خليفة 799.
(2) سعد إسماعيل شلبي، البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر "عصر ملوك الطوائف" " دار نهضة مصر للطبع والنشر- مصر.1978 م ، 149.
(3) صدرت طبعة الديوان الأولى بدون تحقيق عام 1883م، في باليرمو بإيطاليا ثم حققه إحسان عباس عام 1960م معتمداً على الطبعة القاهرية عام 1286هـ ، ثم أعيد طبعه في روما عام 1897م، ، كما قام علي مصطفى المصراتي بإعداد دراسة له عام 1971م بطرابلس. أما ترجمة حياته فمبثوثة في الكتب الأدبية، ينظر على سبيل المثال: مقدمة الديوان، نفح الطيب للمقري.
(4) صقلية جزيرة في البحر المتوسط قريبة من الساحل المقابل للساحل أفريقية (تونس) كانت تحت حكمها العرب فترة من الزمن. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار الفكر بيروت، لاط ، لات، 3/ 416.
(5) ينظر: ابن حمد يس الصقلي، الديوان، نح: إحسان عباس، نشر دار صادر، بيروت، (ط/1960م) المقدمة، ص3.
(6) المعتمد ابن عباد ولد عام 1040 م محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل اللخمي، أبو القاسم، المعتمد على الله حاكم أشبيلية وقرطبة وما حولهما، وأحد أفراد الدهر شجاعة وحزما وضبطا للأمور، توفي عام 1095 م . خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت. 6/ 181.
(7) ينظر: ابن حمد يس الصقلي، الديوان، نح: إحسان عباس، 3 وما بعدها.
(8) ينظر: المصدر نفسه، ص5-8.
(9) علي مصطفى المصراتي، ابن حمد يس الصقلي، نشر مكتبة الفكر، طرابلس، ليبيا (ط/1971م)، ص92.
(10) ابن حمد يس الصقلي، الديوان ص359.
(11) الدَّجن= ظل الغمام اللسان مادة: د ج ن.
(12) القَرَمُ= شدّة الشهوة إلى اللحم. السابق مادة: ق رم.
(13) ابن حمد يس الصقلي، الديوان ص359. ، ص400.
(14) المصدر نفسه، ص400.
(15) ينظر: المصدر نفسه، ص498.
(16) أقب= دِقَّةُ الخَصْر وضُمُورُ البَطْن ولُحوقه قَبَّ يَقَبُّ قَبَباً وهو أقَبُّ. اللسان مادة: ق ب .
(17) أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تح: يوسف الطويل دار الفكر دمشق، ط1، 1987م، 2/ 18 وما بعدها.
(18) هو عنترة بن شداد شاعر وفارس جاهلي شجاع، من قبيلة عبس وإليها ينتسب، كان عبداً لأبيه شداد انتزع حريته في أحدي الغزوات على قبيلته حين رفض ملقاة الغزاة، لأنه عبد فقال له أبيه قولته المشهورة (كر فأنت حر) وهو وأحد من أشهر أصحاب المعلقات ينظر: عبد الله الزوزني، شرح المعلقات السبع، دار مكتبة الحياة، بيروت، لاط ، لات،225.
(19) المصدر السابق، 255.

(20) ينظر: جمعة شيخة، الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي، المطبعة المغاربية، تونس (ط/1997)، ص130.
(21) القَبيعةُ= التي على رأس قائم السيف. اللسان مادة: ق ب ع.
(22) هو إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الأندلسي شاعر غزل ومن الكتاب البلغاء من جزيرة شقر ببلنسية ولد عام 1058م وتوفي عام 1138م ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1971م، 1/ 34.
إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الأندلسي الشاعر وفيات الأعيان وأنباء الزمان (1/ 34)
(23) ينظر: جمعه شيخه، الفتن والحروب، 3/ 130.
(24) المصدر نفسه، ص497.
(25) ينظر: المصدر سابق، ص137.
(26) الدنان = تفخم في ركبة الفرس وهي ميزة وليس عيب. ينظر اللسان مادة: د ن ن.
(27) ابن حمد يس، الديوان، 106.
(28) جزيرة في شرقي الأندلس بالقرب منها جزيرة يقال لها منورقة بالنون، وقد حكمها مبشر بن سليمان في عهد ملوك الطوائف نقلاً عن أشارت بعض المصادر لذلك. ينظر -على سبيل المثال-: ياقوت الحموي، معجم البلدان 5/ 246 ، و أبو الحسن الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، الدار العربية للكتاب ليبيا تونس، ط1، 1981م، 7/ 401.
(29)ابن حمد يس، الديوان، ، 331.
(30) المصدر نفسه، 390.
(31) ينظر مجلة الجسرة القطرية، العدد الخامس عشر، 2003، 55.
(32) ابن حمد يس، الديوان، 61.
(33) المصدر نفسه، ص390.
(34) ينظر: مجلة الجسرة القطرية، العدد الخامس عشر، 2003، ص56.
(35) ابن حمد يس، الديوان، 61.
(36) العَسْبُ طَرْقُ الفَحْل. ينظر:اللسان مادة: ع س ب.
(37) ابن حمد يس، الديوان، 136.
(38) ينظر: جمعة شيخة، الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي، -3/ 142.
(39) ابن حمد يس، الديوان ، 390.
(40) الأيْطَل مُنْقَطَع الأضلاع من الحَجَبَة وقيل القُرْبُ وقيل الخاصرةُ كلها. اللسان مادة: أ ط ل.
(41) ينظر: جمعة شيخة، الفتن وأثرها في الشعر الأندلسي، ج3، ص142.
(42) الديوان، 102.
(43) المرداة يقصد بها تردي الصخرة الشديدة العظيمة الصماء من علو.
(44) اللسان مادة: و ر د.
(45) ابن حمد يس، الديوان, 61.
(46) العواسل= يقصد النحل لأنها الكائن الوحيد الذي يجمع العسل.
(47) الأمير هو أبو الحسن بن يحي المصدر السابق ص ن
(48) المصدر السابق، 390.
(49) أجياد: اسم جبل بمكّة. اللسان مادة: ج ي د
(50) جمعة شيخه، الفتن والحروب في الشعر الأندلسي، 127/3.
(51) ينظر، معجم المؤلفين لرضا كحالة، 269.
(52) ابن حمد يس، الديوان، 426.

(53) الصُّلادِمُ الشديد الحافر . اللسان مادة: ص ل د م .
(54) ابن حمد يس، الديوان، 445.
(55) المناسم – خفاف الإبل. ينظر: اللسان مادة : ن س م.
(56) ابن زمرك، 236.
(57) ابن حمد يس، الديوان، 11.
(58) الأَسْوَدُ اليَحْمُوميُّ اللسان مادة : ج و ن.
(59) سهيل وافي، الفارس والفروسية عند العرب، دار الزهراء، مصر (ط/1998م)، 193.
(60) المصدر نفسه، ص231.
(61) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ= البخاري: الجهاد والسير (2850), ومسلم: الإمارة (1873), والترمذي: الجهاد (1694), والنسائي: الخيل (3575, 3576), وابن ماجة: التجارات (2305) والجهاد (2786), وأحمد (375/4, 376/4), والدارمي: الجهاد (2426).
(62) الرسائل للجاحظ المكتبة الشاملة، 204.
(63) ابن حمد يس، الديوان، 120.
(64) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي ، 371 .
(65) ابن حمد يس، الديوان، 89 .
(66) محمد الزرعي، الفروسية ، دار الأندلس السعودية، ط 1، 129.
(67) ابن حمد يس، الديوان،107.
(68) الظَّلِيمُ= الذكَرُ من النعام. اللسان مادة: ظ ل م، الباشق= اسم طائر أعجمي معرّب السابق مادة: ب ش ق.
(69) ابن حمد يس، الديوان ، 90 .
(70) ينظر :جمعة شيخه، الفتن والحروب في الشعر الأندلسي، -3 / 128.